

التحرير والتنوير

وافتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتوح به في الجمل السابقة فجاءت على أسلوب مختلف . وأحسب أن ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرعة عن أغراض الجمل السابقة فإن جمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله (ا □ الذي رفع السماوات بغير عمد) وقوله (ا □ يعلم ما تحمل كل أنثى) وقوله (إن ا □ لا يغير ما بقوم) وجمل التفاريح افتتحت بالضمائر كقوله (يدبر الأمر) وقوله (وهو الذي مد الأرض) وقوله (جعل فيها زوجين) . و (خوفا وطمعا) مصدران بمعنى التخويف والإطاع فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد .

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معا لأنهم كانوا يسمون البرق فيتوسمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه .

وإنشاء السحاب : تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحبا .
والسحاب : اسم جمع لسحابة . والثقال : جمع ثقيلة . والثقل كون الجسم أكثر كمية أجزاء من أمثاله فالثقل أمر نسبي يختلف باختلاف أنواع الأجسام فرب شيء يعد ثقيلًا في نوعه وهو خفيف بالنسبة لنوع آخر . والسحاب يكون ثقيل بمقدار ما في خلاله من البخار . وعلامة ثقله قربته من الأرض وبطاء تنقله بالرياح . والخفيف منه يسمى جهاما .
وعطف الرعد على ذكر البرق والسحاب لأنه مقارنهما في كثير من الأحوال .
ولما كان الرعد صوتا عظيما جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن ا □ منزله عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء وكان شان تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه ا □ عن الشريك جعل صوت الرعد دليلا على تنزيه ا □ تعالى فإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي . ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمي يسبح ا □ تعالى وأثبت شيء من علائق المشبه به وهو التسبيح أي قول سبحان ا □ .
والباء في (بحمده) للملابسة أي ينزه ا □ تنزيها ملابسا لحمده من حيث إنه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجب الحمد . فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساو للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد . فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية .
و (الملائكة) عطف على الرعد أي وتسبح الملائكة من خيفته أي من خوف ا □ .
و (من) للتعليل أي ينزهون ا □ لأجل الخوف منه أي الخوف مما لا يرضي به وهو التقصير في تنزيهه .

وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين أي أن التنزيه الذي دلت

عليه آيات الجو يقوم به الملائكة فأغني عن تنزيهكم إياه كقوله (إن تكفروا فإن أغني عنكم) وقوله (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن أغني لغني حميد) .
واقصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنها لا نعمة فيها لأن النعمة حاصلة بالسحاب وأما الرعد فآله من آلات التخويف والإنذار كما قال في آية سورة البقرة (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) . وكان العرب يخافون الصواعق . ولقبوا خويلد بن نفيل الصعق لأنه أصابته صاعقة أحرقتة .
ومن هذا القبيل قول النبي A " أن الشمس والقمر آيتان من آيات أغني يخوف أغني بهما عباده " أي بكسوفهما فاقصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يتربص الناس من كسوفهما نفعا .
وجملة (وهم يجادلون في أغني) في موضع الحال لأنه من متمات التعجب الذي في قوله (وإن تعجب فعجب قولهم) الخ . فضائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وقوله (أولئك الذين كفروا بربهم) وقوله (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) . وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضوائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحض تخويف الكافرين .
والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول . وتقدم في قوله تعالى (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) في سورة النساء .

وقد فهم أن مفعول (يجادلون) هو النبي A والمسلمون . فالتقدير : يجادلونك أو يجادلونكم كقوله (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) في سورة الأنفال .
والمجادلة إنما تكون في الشؤون والأحوال فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل (يجادلون) يتعين أن يكون على تقدير مضاف تدل عليه القرينة أي في توحيد أغني أو في قدرته على البعث .